تعلمتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وضع الرجل المناسب في المكان المناسب

إعداد د. جمال عبد الرحمن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على معلّم البشرية رسول الله.

وبعد: فمن المعلوم من الدين ضرورةً أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم هو المعلم الأول والأخير لتلك الأمة التي أرسله الله تعالى إليها، فهو عليه الصلاة والسلام في أمته أول المؤمنين والمعلمين، ولن يأتي أحد بعده يستدرك عليه في تعليمه. ولهذا وصف الصحابي الجليل معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه النبي في تعليمه بقوله: «فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ مُعلمًا قبلَهُ ولا بعدَهُ أحسنَ تعليمًا منه». صحيح مسلم ح٥٣٧. وما أروع قوله صلى الله عليه وسلم عن نفسه وهو يبين مكانته ومسئوليته التعليمية في الأمة حيث قال: «إنما أنا لكم مثل الوالد؛ أعلمكم». مسند أحمد ح٧٤٠٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وإسناده قوي.

وما أحسن توظيف وتكليف الله تعالى له للقيام بتلك المهمة التعليمية السامية حين ابتعثه الله، وأوحى إليه أن يعلم الناس الكتاب والحكمة، ويبين لهم ما نُزِّلَ إليهم من ربهم، فقال جل جلاله: «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (الجمعة: ٢). ولقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم وجوب وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ولا تجوز المجاملة في ذلك ولا المحاباة؛ لأن من وراء ذلك الفساد الكبير، والشر المستطير.

إن وضع الرجل غير المناسب في المكان الذي لا يستحقه يرفع من مقام الوضيع، وينقص من مقام الفاضل. فعندما يدير الشخص غير المناسب أي قطاع أو منظومة فإنه يحارب الكفاءات حتى لا يظهر أحد بجواره يخطف منه الأضواء، فيحاربه بالتهميش تارة وبالإقصاء تارة وبالكذب والافتراء والكيد تارة أخرى.

ووضع شخص في غير موقعه ومنحه حقاً ليس له بأهل مع العلم بقدرة شخص آخر أجدر وأحق به يُعدّ من الظلم وخيانة الأمانة، وهو محرم شرعاً؛ لما ينتجه من ضياع الحقوق وفساد الإدارات والمجتمعات؛ عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن استعمل عاملاً على قوم، وفي تلك العصابة مَن هو أرضى لله منه، فقد خان الله، وخان رسول الله صلى الله عليه وسلم».

Upload by : altawhedmag.com

وخان جميع المسلمين» السنة لابن أبي عاصم ح١٤٦٢.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»، مما يدل على أن إسناد الأمور لغير الأكفاء إيذان بخراب النظم وضياعه. ووضع غير المستحق في المكان العالي يحرم المستحق الحقيقي من حقه، وقد حرم الله الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً. ثم إن من قام بهذا الفعل يتحمل وزر إضاعة الحقوق وظلم المستحق. وفي هذا من الضرر العام ما يؤدي إلى تفشي المحاباة والمجاملة على حساب الكفاءة والعلم، وينتج عنه تراجع في الأعمال وضياع للمصالح.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنها ستأتي على الناس سنون خداعة، يُصدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصادق، ويُؤتمَنُ فيها الخائن، ويُخوَّنُ فيها الأمين، ويَنطق فيها الرُّوَيْبِضَة» قيل: وما الرُّوَيْبِضَة؟ قال: «السَّفيهُ يَتكلَّمُ في أمر العامَّة». مسند أحمد ح ٧٩١٢. وهو حديث حسن بمجموع طرقه.

قال الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم: «ومَضْمُونُ مَا ذُكِرَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فِي هَذَا الحديث يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الأُمُورَ تُوَسَّدُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِمَنْ سَأَلَهُ، عَنِ السَّاعَةِ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، فَإِنَّهُ إِذَا صَارَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رِعَاءُ الشَّاءِ -وَهُمْ أَهْلُ الجَهْلِ وَالجَفَاءِ- رُؤُوسَ النَّاسِ، وَأَصْحَابَ الثَّرْوَةِ وَالأَمْوَالِ، حَتَّى يَتَطَاوَلُوا فِي البُنْيَانِ، فَإِنَّهُ يَفْسُدُ بِذَلِكَ نِظَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ رَأْسُ النَّاسِ مَنْ كَانَ فَقِيرًا عَائِلًا، فَصَارَ مَلِكًا عَلَى النَّاسِ، سَوَاءٌ كَانَ مَلِكَهُ عَامًّا أَوْ خَاصًّا فِي بَعْضِ الأَشْيَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُعْطِي النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، بَلْ يَسْتَأْثِرُ عَلَيْهِمْ بِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنَ المَالِ، فَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَأَنْ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى فَمِ التِّنِّينِ، فَيَقْضَمُهَا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَمُدَّهَا إِلَى يَدِ غَنِيٍّ قَدْ عَالَجَ الفَقْرَ. وَإِذَا كَانَ مَعَ هَذَا جَاهِلًا جَافِيًا، فَسَدَ بِذَلِكَ الدِّينُ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ هِمَّةٌ فِي إِصْلَاحِ دِينِ النَّاسِ وَلَا تَعْلِيمِهِمْ، بَلْ هِمَّتُهُ فِي جِبَايَةِ المَالِ وَاكْتِنَازِهِ، وَلَا يُبَالِي بِمَا فَسَدَ مِنْ دِينِ النَّاسِ، وَلَا بِمَنْ ضَاعَ مِنْ أَهْلِ حَاجَاتِهِمْ. وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَسُودَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مُنَافِقُوهَا». وَإِذَا صَارَ مُلُوكُ النَّاسِ وَرُؤُوسُهُمْ عَلَى هَذِهِ الحَالِ انْعَكَسَتْ سَائِرُ الأَحْوَالِ، فَصُدِّقَ الكَاذِبُ، وَكُذِّبَ الصَّادِقُ، وَائْتُمِنَ الخَائِنُ، وَخُوِّنَ الأَمِينُ، وَتَكَلَّمَ الجَاهِلُ، وَسَكَتَ العَالِمُ، أَوْ عَدِمَ بِالكُلِّيَّةِ، كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَأَخْبَرَ: أَنَّهُ يُقْبَضُ العِلْمُ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». وَقَالَ الشَّعْبِيُّ رحمه الله تعالى: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَصِيرَ العِلْمُ جَهْلًا، وَالجَهْلُ عِلْمًا». وَهَذَا كُلُّهُ مِنِ انْقِلَابِ الحَقَائِقِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَانْعِكَاسِ الأُمُورِ. وفي صحيح الحاكم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُوضَعَ الأَخْيَارُ، وَيُرْفَعَ الأَشْرَارُ». (جامع العلوم والحكم: ١/١٣٩).

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يختار لكل مهمة الرجل الذي يناسبها بكفاءته وقدرته الخاصة.

فوضع أبا بكر في الصلاة؛ وعلياً في القضاء؛ وعتاب بن أسيد على مكة؛ فقد استعمله النبي على مكة وهو شاب يبلغ نحو عشرين عاماً؛ لذكائه وحكمته وحسن إدارته لأطهر البقاع.

وأسامة بن زيد في الجيش؛ فقد ولاه النبي صلى الله عليه وسلم قيادة جيش فيه كبار الصحابة كأبي بكر وعمر؛ لأنه كان كفئاً لقيادة الجيوش وفنون القتال.. وخالد بن الوليد لقبه النبي بسيف الله المسلول واختاره لقيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات العسكرية البارزة لمهارته وحنكته القتالية الفريدة.

ومصعب بن عمير بعثه النبي سفيراً ومعلماً لأهل المدينة قبل الهجرة لتميزه بالحكمة وحسن الوفادة والقدرة على الدعوة والحوار. ومعاذ بن جبل؛ أرسله إلى اليمن قاضياً ومعلماً لفقهه الواسع وعلمه بأحكام الحلال والحرام. وقال له: "أعلمُ أمتي بالحلال والحرام معاذ".

وعمرو بن العاص؛ ولاه النبي قيادة غزوة ذات السلاسل لحنكته العسكرية ودهائه وخبرته بالقبائل. حتى سأل عمرو بن العاص النبي صلى الله عليه وسلم: "أي الناس أحب إليك؟" قال:

Upload by : altawhedmag.com

"عائشة"، قال: "فمن الرجال؟" قال: "أبوها"، دليل على تقدير الأقدار والمنازل للرجال.

وبلال بن رباح: اختاره لرفع الأذان لنداء الصلاة لجمال صوته وقوته وجهارته. وزيد بن ثابت: ولاه كتابة الوحي لذكائه وسرعة حفظه ودقته. وحسان بن ثابت: جعله شاعراً للدفاع عن الإسلام بلسانه؛ لأن شعره كان قوياً ومؤثراً.

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من المحاباة في الوظائف وطلبها والحرص عليها كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه» (رواه مسلم)؛ وذلك لمنع تولّي غير الكفء أو طالب المنظرة والوجاهة.

كيف لا وهو القائل صلى الله عليه وسلم: "إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة"، فالرجل المناسب في المكان المناسب، فلا تسند الوظيفة إلاّ لمن هو أهل لها، لغرض أن تبرز كفاءته وصفاته، فالنبي صلى الله عليه وسلم اعتذر لأبي ذر رضي الله عنه لما طلب منه أن يستعمله، بل حذره من خطر ذلك عليه مما عرفه عنه صلى الله عليه وسلم، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا ذرٍّ إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرنّ على اثنين ولا تولّينّ مال يتيم". وعنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: "يا أبا ذرٍّ إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ إلاّ مَنْ أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها" رواه مسلم.

وقد يكون الرجل حسن السيرة، معروفاً بين الناس بأخلاقه وفضائله لكنه ليس أهلاً لتولّي المناصب العامة، فلو أعطي له منصب معين فسيؤدي به إلى عواقب سيئة، فالحديث معناه أنه إذا أنيط برجل منصب، ولم يكن أهلاً لقيادته فسيؤول إلى خراب وإلى دمار، وانتظار الساعة يعني: خراب ذلك الشيء. فحين طلب أبو ذر من النبي صلى الله عليه وسلم الإمارة، فردّ النبي توليته لعدم ملائمة قدراته الإدارية للمنصب رغم صلاحه وتقواه.

وفي حديث آخر يرويه الحاكم بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ استعمل رجلاً من عصابة-أي: طائفة- وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"، ويعرف هذا الشخص من خلال حسن تصرُّفه، وصيت سمعته بين المسلمين، وقد ظهر ذلك عياناً، واشتهر بفضائله بينهم، فهذا يقدم على غيره.

خطورة توسيد الأمر لغير أهله:

سقطت دول وزالت عروش وانهدت ممالك بسبب توسيد الأمور إلى مَن لا يحسن إدارتها. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: "وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقلّ عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية، وتغلّب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد طرابلس وأنطاكية وجميع ما والى ذلك، إلى بلاد آياس، واستحوذوا على بلاد آمد وأرزها ورأس العين وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقاً وأمماً لا يحصيهم إلاّ الله، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يُحدّ ولا يُوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يُحدّ ولا يُوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكنّ الله سلّم، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله عز وجل هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته". (البداية والنهاية ط إحياء التراث: ١٢/ ٣٣٢).

نسأل الله تعالى السلامة والعافية. والحمد لله رب العالمين.

Upload by : altawhedmag.com